جدول الضرب فى حساب النجاح

ألف هذا الكتاب: س. نور ثكوت باركتسون

وترجمة الدكتور راشد البراوى

آسف أن أقدم فى البداية «قانون باركنسون» ونحن فى مصر على الأقل عندنا دافق من القوانين حتى زهدنا فى جديد.

ومع هذا «قانون باركنسون أو الهرم الصاعد» يستحق العرض لطرافته وغرابته.

ومضمون هذا القانون أن العمل كما يقول يزداد بحيث يستوعب كل الوقت المتوافر لإتمامه.

وتدل على سعة إدراك هذه الحقيقة العبارة المأثورة وهى «أكثر الناس عملا، أكثرهم فراغا» ومن هنا فالسيدة المتقدمة فى السن التى لا عمل لها، تستطيع أن تقضى اليوم كله فى كتابة تذكرة بريد وإرسالها الى ابنة أختها المقيمة فى مدينتها.. فهى تضيع ساعة كى تجد التذكرة، ومثلها فى التفتيش على نظاراتها، ونصف ساعة للبحث عن العنوان، وساعة وربع ساعة فى الكتابة، وعشرين دقيقة حتى يستقر رأيها على ما إذا كان يحسن بها أن تحمل أو لا تحمل مظلتها حين تتوجه إلى صندوق البريد فى الشارع المجاور وهكذا نجد أن المجهود الكلى الذى لا يستغرق من الرجل المشغول أكثر من ثلاث دقائق قد ينهك بهذه الصورة شخصا آخر بعد يوم انقضى فى الشك والقلق والعمل الشاق.

وسخر المؤلف من عالم الوظائف ففيه ٧ =١ ما بين تقسيم العمل وطلب مساعدين فيه ثم الاستزاده منهم والاتكال عليهم وهكذا يقوم سبعة أشخاص بالعمل الذى كان يؤديه فرد واحد.

وقد صور أسلوب الامتحان الشفوى فى كل من انجلترا والصين فالأولى تنصب الأسئلة فيها على الألعاب الرياضية وعما إذا كان الطالب يتقنها أم لا.. والأخرى يجرى الامتحان فيها فى الآداب القديمة والقدرة على الكتابة الأدبية (النثر والشعر).

تقدم مرة إلى لجنة الاختيار الصينية ٤٨٣ جميعهم من الحاصلين على درجة علمية من المرتبة الأولى من جامعات. وسأل المؤلف رئيس لجنة الاختيار الصينية أيهم يفوز؟. وهنا الطرافة إذ ابتسم

الاستاذ الصينى وقال (لا يصلح أى منهم)!! ويسأله مرة أخرى وقد علته الدهشة: «ولكن كيف- أعنى لماذا؟) فيقول:

«لأن الشخص الكفء لن يقدم طلبا خشية أن تخدش كرامته إذا لم يقع عليه الاختيار»

وتتوالى الطرائف

فيسخر المؤلف من أحجام الوزارات. فالحجم المثالى لمجلس الوزارة فى نظر علماء اللجان والمؤرخين بل وفى نظر الذين يعينون الوزارات، يتكون من خمسة أعضاء.. فمن السهل جمع خمسة أعضاء، وإذا تحقق ذلك صار فى وسعهم أن يعملوا بكفاية وسرية وسرعة.

ومن هؤلاء الأعضاء الأصليين قد تتوافر لأربعة الدراية الطيبة بشئون المالية والسياسة الخارجية والدفاع والقانون على التوالى.. أما العضو الخامس الذى لا يتمكن من أى من هذه الموضوعات فإنه يرأس الوزارة أى يصبح رئيس الوزراء.

(أكاد أرى شعوب الشرق مستغرقة فى الضحك أو مغرقة فى الاستجارة وتفويض الأمر لله).

نرجع إلى «باركنسون».. تصوروا أنه يسخر من الوزارة التى يبلغ عدد وزرائها تسعة!! (ذلك أنه فى مجلس وزراء من تسعة أعضاء سوف يتضح أن الذين يرسمون السياسة ثلاثة وأن اثنين يقدمان البيانات وأن واحدا يقدم التحذير من الناحية المالية.. فإذا أضفنا إليهم الرئيس المحايد أصبح العدد سبعة، أما العضوان الباقيان فيبدو لأول وهلة أنهما مجرد زينة).

تمنيت أن أعرف رأيه إذا صعد هذا العدد إلى ثلاثين أو أربعين.

ولكن اركنسون فيما يبدو لن يجيب الآن على سؤال لأن الوزارات من حيث العدد، عنده، مراحل.. ووزارة التسعة يعتبرها المرحلة الثانية مثل وزارات كوستاريكا واكوادور وارلنده الشمالية وليبريا والفلبين وأورجواى وبنما).. أى أقلية صغيرة بين وزارات العالم.

أما البلاد الأخرى فإن الوزارات كما يقول خضعت بوجه لقانون النمو إذ يضم إليها أعضاء آخرون وبعضهم بحجة أن لديهم معرفة خاصة، ولكن السبب الأكبر أن استبعادهم مصدر مضايقة- يقصد استقطابهم- ويمكن إسكات معارضتهم عن طريق إشراكهم فى أى قرار يتخذ.

وإذ يضمون إلى اللجنة واحدا بعد الآخر (وتجرى تهدئتهم) فإن العدد الكلى يرتفع من عشرة إلى عشرين.

وفى هذه المرحلة الثالثة من تطور الوزارات مساوىء بالغة.

ويمعن فى السخرية حين يفصل المساوىء.

(وأوضح هذه المساوىء على الفور صعوبة جمع الناس فى المكان نفسه والتاريخ والوقت. فهذا عضو ينوى السفر يوم ١٨، وآخر لن يعود قبل يوم ٢١، وثالث مشغول دائما كل ثلاثاء، بينما لا يمكن الاتصال بالرابع قبل الخامسة مساء.. ولكن هذا فقط بداية المتاعب إذ بمجرد اجتماعهم فإن الفرصة أكبر لأن يكون الأعضاء من المتقدمين فى السن، وممن يثيرون المتاعب، ولا يمكن سماع أصواتهم ويعانون من الصمم).

أما اذا بلغ عدد الوزراء ٢٢ وزيرا، اعتبر «باركنسون» الوزارة أو المسألة: ثالثة الأثافى..

يقول (عند هذه النقطة من تطور حجم الوزارة (بين ٢٠-٢٢ عضوا) تعانى الوزارة كلها من تغيير كيميائى أو عضوى مفاجىء، ومن السهل أن نتتبع ماهية هذا التغيير ونفهمه. فأولا نجد أن الأعضاء الخمسة المهمين يجتمعون مقدما، وإذ يكونون قد اتخذوا القرارات اللازمة فلا يتبقى سوى القليل مما يتعين على الهيئة التنفيذية الاسمية أن تعمله).

أخيرا عثرت على جواب سؤالى الخاص بتمدد الوزارة حتى يصل عددها أربعين.. مثلا.. مثلا.. الجواب، على لسان باركنسون:

وإذ تفتح الأبواب على مصراعيها ترتفع العضوية من ٢٠-٣٠ ومن ٣٠-٤٠، وقد يأتى وقت يصل فيه العدد إلى ألف عضو ولكن هذا لا أهمية له لأن الوزارة لم تعد وزارة حقيقية إذ خلفتها هيئة أخرى فى الاضطلاع بوظائفها القديمة).

ويمعن.. باركنسون فى السخرية فيقول:

(عندما يزيد العدد على ٢٠ عضوا (عشرين) فإنه فى هذه الحالة يبدأ الجالسون فى طرفى المائدة يتبادلون الحديث على حدة، كما يتعين على العضو أن يقف حتى يستطيع الامتناع عن الخطابة ولو بحكم العادة على الأقل. سوف يبدأ كلامه قائلا:

سيادة الرئيس. أظن أنى قد أؤكد دون خوف من المعارضة- وإنى أقول الآن عن خبرة ٢٥ عاما، إنه يتعين علينا أن ننظر إلى هذه المسألة نظرة جدية للغاية. سيدى إن مسئولية ثقيلة تقع على عاتقنا، وإنى..

وهنا يعلق باركنسون فى طرافة ساخرة،:

فى وسط هذا السفه كله نجد أن الأفراد النافعين (إن وجد منهم أحد) يتبادلون مذكرات صغيرة كتب عليها:

(تناول الغذاء معى غدا- سوف نجعل الميعاد كذلك) وماذا يستطيعون أن يفعلوا خلاف هذا؟ ان الصوت يطن ويستمر هكذا إلى ما لا نهاية وكأن الخطيب يتكلم وهو نائم، ذلك أن اللجنة التى يعتبر أقل أعضائها نفعاً لم تعد ذات أهمية. إنها انتهت ولا أمل منها.. ولقد ماتت).

وقد وقف المؤلف طويلا عند الروتين الحكومى وسن المعاش فيقول إن بعض القبائل الافريقية البدائية جرت عادتها على التخلص من الملك أو الزعيم عند مرحلة معينة من حياته إما بعد فترة من السنوات أو فى اللحظة التى يبدو فيها أن قواه قد خارت.. أما فى أيامنا هذه فتتلخص الطريقة فى أن نضع أمام الرجل العظيم برنامجا لعدة مؤتمرات. يعقد أولها فى هلسنكى خلال شهر يونيه والثانى فى أد لايد فى يوليه، ويعقبهما اجتماع فى أتاوا فى اغسطس، على أن يستمر كل من الاجتماعات ثلاثة أسابيع.. ثم يؤكدون لهذا العظيم أن سمعة الإدارة أو الشركة تتوقف على حضوره وأن تكليف غيره بهذا الواجب يعتبر اهانة فى نظر المشتركين فى المؤتمر.. ويتيح له برنامج السفر، العودة إلى مكتبه لمدة ثلاثة أيام أو أربعة بين كل مؤتمر وآخر حيث يجد فى كل مرة، تلا عاليا من الاستمارات التى يتعين عليه أن يملأها بعضها يتصل بأسفاره، والبعض عبارة عن طلب تراخيص أو تحديد حصص والباقى مكتوب عليها عبارة «ضريبة الدخل» وبعد أن يفرغ من الاستمارات التى تنتظر توقيعه عليها بعد اجتماع أوتاوا، يقدم إليه برنامج يتضمن مجموعة أخرى من المؤتمرات، أحدها بمانيلا فى سبتمبر والثانى بمكسيكوسيتى فى اكتوبر، والثالث بمدينة كويبك فى نوفمبر.. وإذ يحل شهر ديسمبر يعترف بأنه قد تقدم فى السن، ثم يصرح فى يناير بأنه ينوى اعتزال الخدمة.

ويستمر «باركنسون» أو يمعن فى السخرية قائلا (وجوهر هذه الطريقة أن ترتب المسائل بحيث تعقد المؤتمرات فى أماكن تفصل بينها أبعد المسافات، وذات أجواء متباينة تباينا شديدا من

حيث الحرارة والبرودة، وينبغى ألا يتضمن البرنامج أية رحلة مريحة بالبحر، بل يجب أن يكون السفر كله بالجو..ويجب عدم تفضيل طريق على آخر لأنها جميعا معدة لراحة البريد أكثر منها لراحة الركاب.. ويمكن أن نفترض ونحن مطمئنون وبدون أى بحث تقريبا، أن معظم الرحلات تبدأ فى الساعة الثانية والدقيقة الخمسين صباحا، بحيث يصل الى المطار فى الساعة الواحدة والنصف، ويوزن المتاع فى الساعة ١٢ والدقيقة ٤٢ وطبقا لجدول السفر تصل الطائرة فى الساعة ٣ والدقيقة عشرة من اليوم التالى، إلا أنها دائما تتخلف عن موعدهاولهذا لا تهبط إلا فى الساعة ٣ والدقيقة ٥٧ صباحا بحيث يغادر الركاب الجمرك ومكتب الهجرة حوالى الساعة ٤ والدقيقة ٣٥.

ومن الممكن بل ومن المعتاد حقا خلال الرحلات حول العالم أن يقدم الفطور حوالى ثلاث مرات، ولكن فى حالتنا هذه يحدث العكس إذ تمر الساعات دون أن يقدم أى طعام اللهم سوى كأس من الشيرى أخيرا حين يوشك المسافر على الانهيار بسبب عدم التغذية. وبطبيعة الحال سوف ينقضى معظم وقت الرحلات فى ملء استمارات مختلفة عن العملة والصحة. كم معك من الدولارات (الأمريكية) والجنيهات (الاسترلينية) والفرنكات والماركات والجيلدروالين والليرات وما مقدار المبالغ المقيدة فى خطابات الاعتماد وشيكات المسافرين وطوابع البريد وأذونات البريد؟ وأين نمت فى الليلة الماضية والتى قبلها؟ (والسؤال الأخير سهل إذ يستطيع المسافر بطريق الجو عادة أن يعلن بصدق أنه لم يذق النوم إطلاقا خلال الأسبوع السابق) وما محل ميلادك وما اسم جدتك العذرى؟ وما عدد أطفالك ولماذا؟ وما المدة التى ستقضيها وأين تقيم؟ وما الغرض من زيارتك، إن كان ثمة غرض منها (كما لو أنه فى إمكانك الآن أن تتذكر هذا الغرض وهل أصبت بالسعال الديكى، ولماذا لم تصب به؟ وهل لديك فيزا للدخول فى بتاجونيا وتصريح بالعودة إلى هونج كونج؟ ويعاقب من يدلى ببيانات باطلة بالسجن مدى الحياة.. من فضلكم اربطوا أحزمة المقاعد.. نحن على وشك الهبوط فى رانجوم.. التوقيت المحلى؟ والدقيقة ٤٧ صباحا.. درجة الحرارة فى الخارج ١١٠ فهرنهايت. سوف نتوقف هنا لمدة ساعة تقريبا سيقدم طعام الفطور فى الطائرة بعد إقلاعها بخمس ساعات نشكركم (على ماذا بحق السماء!) الرجاء عدم التدخين.

أعود إلى أول الكتاب أى المقدمة.. وقد كتبها، الأستاذ على أمين.. (إنه كتاب ضاحك يسخر من حقائق الحياة ويحولها إلى ضحيكات! وهو يسخر من الروتين الحكومى ومن السلاحف التى

تحمل ملفات الدولة من مكتب إلى مكتب ومن مدير إلى مدير.. وهو يثبت أنه اذا استطاع عشرة آلاف عامل أن يبنوا أهرام خوفو فى عشر سنوات.. فإن مليون عامل لا يستطيعون بناء الهرم فى مائة سنة! وهذا هو سر الخرائب التى نراها فى كل إدارة وكل وزارة).

ويؤيد هذا ما رأيته فى ضاحية جراس بباريس.. لقد زرت مصنعا كبيرا للعطور ولاحظت أن الادارة تتكون من أربعة لا غير.. وحين دخلنا عليهم مع رئيس المصنع لم يتحرك أحد منهم بل مضى فى عمله.

وعندنا ليس عشرات الوزراء فحسب بل آلاف وكلاء وزارة وآلاف من مديرى المكاتب والسكرتارية وعشرات من الحجاب والسعاة.. بحيث لو انتظموا فى الحضور لا يسعهم إلا استاد القاهرة.

والمؤلف وهو يتحدث عن الروتين فى انجلترا، يشعرك بأنه يتحدث عن الروتين فى بلادك.. فالروتين لا جنسية له لكنى اعتقد أن الروتين المصرى تفوق على الروتين فى سائر أنحاء العالم بلا منازع..

حين عين الاستاذ على أمين مديرا لمكتب وزير المالية وجد فى انتظاره ١٥ ألف ملف حكومى (خمسة عشر ألفا من الملفات)! بالتمام.

ولما كان مطلوبا منه أن يقرأها ويلخصها ويعرضها على وزير المالية فقد سهر الليالى الطوال فى هذه المهمة المضنية.

كان من بين الملفات التى تعرض على الوزير، موضوع معاش الموظف الذى يقل عن خمسين قرشا فى الشهر (لا تقولوا، واو كالأمريكان) انتظروا فللقصة بقية.. ولاحظوا أن وقائع القصة حديثة سنة ١٩٤٢.

كانت تعد مذكرة فى عشرين سطرا تعرض على الوزير تقترح رفع المعاش من ٤٨ الى خمسين قرشا!! وكان الوزير يوقع على المذكرة ويحيلها الى اللجنة المالية عند اجتماعها تحت رئاسته.. فإذا وافقت اللجنة على رفع المعاش، أعدت مذكرة جديدة يوقعها وزير المالية وتطبع منها ٢٠٠ مائتا نسخة وترسل الى رئيس الوزراء لعرضها على مجلس الوزراء!

فإذا اتسع وقت مجلس الوزراء للمناقشة- أقصد مناقشة المذكرة وإقرارها أعيدت بتوقيع رئيس الوزراء الى وزير المالية الذى يحيلها بدوره إلى وكيل الوزارة الذى يحيلها بدوره الى مدير عام المعاشات الذى يحيلها بدوره الى الموظف المختص.

وكانت هذه المذكرة تستغرق عادة حوالى خمس سنوات للانتقال بين مكاتب وزارة المالية وهى متجاورة فى بناء واحد!!!

يقول الاستاذ على أمين: (واكتشفت أن رفع المعاش عشرين مليما يكلف الدولة مئات الجنيهات ثمن ورق مذكرات وألوف الجنيهات من وقت الوزراء والموظفين! فأعددت مذكرة إلى مجلس الوزراء بإحالة اختصاص تكملة المعاش الى ٥٠ قرشا إلى وكيل إدارة المعاشات.. وليس الى مدير عام المعاشات.

مرة أخرى اقتبس من المقدمة فقرة.

والكتاب الذى بين يديك هو مذكرة تفسيرية للعنكبوت الذى يغطى ألوف الملفات وتراب النسيان الذى يغطى مصالح الناس ويضيع اموال الشعب!

ويمكن بعد أن تضحك.. أن تنظر حولك وتقترح عدة حلول للقضاء على الروتين الذى يسرق مالك ويخطف وقتك، ويحطم أعصابك.

فإن بين الصفحات الضاحكة سطور تثير الدموع.

أقول نحن نتكلم كثيرا عن التكنولوجيا ولكن قبل التكنولوجيا يجب أن نتخلص من عنكبوت الروتين وطاغوت البيروقراطية وعبارة (معروض برجاء النظر) وتصعيدها إلى سبع رئاسات ما بين مدير ووزير.. ليتنا نبدأ بأنفسنا قبل شماعة التكنولوجيا أليس كذلك؟